المال ودوره في سلوك الشخصية الروائية
يوسف إدريس نموذجاً

صلاح محمود سيد مناع
قسم الأدب والنقد ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، أسيوط ، مصر
البريد الإلكتروني : salahmanna.47@azhar.edu.eg

الملخص :
المال له دور عظيم في حياة البشر ، ويؤثر تأثيرًا عظيمًا في سلوكيات الإنسان ، وقد ركز يوسف إدريس على هذه التأثيرات في روايتيه : العيب والحرام ؛ حيث ظهر التأثير السلبي للمال على شخصيات روايتيه ، فقد سلط الضوء على بعض النماذج الكادحة واهتم بالطبقة الكادحة من الفقراء الذين عضهم الفقر بنابه ، ومزق نياط قلوبهم ، ممن دعتهم الحاجة إلى السقوط في بئر الرذيلة ، فخالفوا المبادئ السامية ، وابتعدوا عن الطريق القويم ، كل ذلك كان بسبب عوزهم وفقرهم ، والظلم الاجتماعي الواقع عليهم ، وعدم قدرتهم على القيام بمسؤلياتهم ، كما اهتم الكاتب وركز على العواقب السلبية المترتبة على قوة تأثير المال في سلوكيات الشخصيات ، وتغيير مسار حياتها ، فدافع عنهم ، وهجم على النبلاء من الطبقة الإرستقراطية ، وهو بهذا ينصب من نفسه مصلحًا اجتماعيًا وناقدًا امتاز بنقده اللاذع لكثير من المشاكل الاجتماعية .

الكلمات المفتاحية : المال ، الشخصية الروائية ، الحرام ، العيب ، يوسف إدريس .

Money and his role in the behavior of the novelist
Youssef Idris as a model

Salah Mahmoud Sayed Manna
Department of Literature and criticism , Arabic Language college , AlAzhar University , Assuit , Egypt .
Email : salahmanna.47@azhar.edu.eg

Money has a great role in human life, and it has a great influence on human behavior. Youssef Idris focused on these influences In his two novels : Blemish and Forbidden, where the negative effect of money appeared on the characters of his novel, as he highlighted some industrious models and cared for the industrious class of the poor who bitten them. Poverty with his tongue, and tore the seam of their hearts, who were called upon to need to fall into the well of vice, and they violated the noble principles, and moved away from the right path, all of this was due to their want and poverty, social injustice incurred by them, and their inability to carry out their responsibilities, as the writer cared and focused on the negative consequences The meter Repenting on the strength of the influence of money on the behavior of personalities, changing the course of her life, he defended them, and attacked the nobles from the aristocracy, and by this he is setting himself up as a social reformer and critic who has been distinguished by his sharp criticism of many social problems.

Keywords : : Money , the behavior of the novelist , The Blemish , The Forbidden , Youssef Idris

تمهيد

يعد يوسف إدريس [1] أحد أعظم كتاب الأدب المصري، وأشهر روائي اجتماعي فقد برز خلال العديد من أعماله الروائية كمصلح اجتماعي ، وناقد امتاز بنقده اللاذع لكثير من المشكلات الاجتماعية .

---

(١) ولد يوسف إدريس لأسرة متوسطة بإحدى قرى محافظة الشرقية عام ١٩٢٧، التحق بالمدارس الحكومية حتى المرحلة الثانوية ، ليكمل مشوار تعليمه بكلية الطب جامعة القاهرة ، ثم ليتخرج فيها عام ١٩٥١، انضم إلى المناضلين الجزائريين في الجبال وحارب معارك استقلالهم ، وأصيب بجرح وأهداه الجزائريون وسامًا إعرابًا عن تقديرهم لجهوده. حصل في عام ١٩٦٣ على وسام الجمهورية ، واعترف به ككاتب من أهم كتاب عصره . عاش في مرحلة الشباب فترة حيوية من تاريخ مصر من جوانبه الثقافية والسياسية والاجتماعية ، حيث الانتقال من الملكية بكل ما فيها من متناقضات إلى الثورة بكل ما حملته من آمال ، ثم النكسة وما خلفته من هزائم نفسية ، ثم النصر في ٧٣ بكل ما كان ينطوي عليه من استرداد الكرامة والعزة . كان كاتبنا غزير الثقافة واسع الاطلاع بالشكل الذي يصعب معه عند تحديد مصادر ثقافته أن تقول إنه تأثر بأحد الروافد الثقافية بشكل أكبر من الآخر ..حيث اطلع على الأدب العالمي وخاصة الروسي ، وقرأ لبعض الكتاب الفرنسيين والإنجليز ، كما كان له قراءاته في الأدب الأسيوي ، وقرأ لبعض الكتاب الصينيين والكوريين واليابانيين ، وإن كان مما سجله النقاد عليه أنه لم يحفل كثيرًا بالتراث الأدبي العربي ، وإن كان قد اطلع على بعض منهم .

هذا من الناحية الأدبية والفنية والثقافية بصفة عامة حيث ساهمت في تشكيل وعيه العقلي والأدبي ، ولعل ممارسته لمهنة الطب وما تنطوي عليه هذه الممارسة من اطلاع على أحوال المرضى في أشد لحظات ضعفهم الإنسانية ، ومعايشته لأجواء هذه المهنة الإنسانية ما أثر في وعيه الإنساني والوجداني بشكل كبير ، مما جعل منه إنسانًا شديد الحساسية شديد القرب من الناس شديد القدرة على التعبير عنهم ، حتى تكاد تقول : إنه =يكتب من داخلهم وليس من داخل نفسه ، وله أعمال كثيرة من روايات ومسرحيات ومقالات .

ولعل أهم موضوع تسيد روايتي (العيب)(والحرام) هو جشع الإنسان ولهثه وراء المال ، وما للمال من تأثيرات سلبية على سلوكيات الإنسان في المجتمع المصري ، فمن يملك الكثير من المال يستطيع أن ينال المكانة الرفيعة دون غيره في أوساط مجتمعه ، ومن لم يملك المال فهو والعدم واحد ، هؤلاء الفقراء الذين يعيشون في المنازل الصغيرة ولا يملكون مالًا لشراء قوت يومهم .

وأدرك يوسف إدريس ذلك الوضع المعيشي لأولئك الفقراء ، فصور في هاتين الروايتين الحالة المعيشية لتلك الطبقة وحياة البؤس التي كانوا يعيشونها ، وتأسيسًا على ذلك تناولت هذه الدراسة تحليلًا نقديًا لهاتين الروايتين واللتين نوقش فيهما اهتمام الكاتب وتركيزه على العواقب السلبية المترتبة على قوة تأثير المال في سلوكيات الأفراد وحياتهم في المجتمع المصري .٠

وتركز هذه الدراسة وبشكل رئيس على أحداث معينة ، لعب فيها المال دورًا حيويًا في سلوكيات الشخصيات الرئيسة للروايتين وحياتهم ، كما أن الدراسة اشتملت على تحليل دقيق لسلبيات تأثير قوة المال على السلوك الإنساني لهذه الشخصيات .

فمن رواياته : الحرام ،العيب ، رجال وثيران ، البيضاء ، السيدة فيينا ، ونيو يورك .

ومن أهم مسرحياته : ملك القطن ، جمهورية فرحات ، اللحظة الحرجة، الفرافير ، المهزلة الأرضية ، المخططين ، الجنس الثالث ، البهلوان .

ومن مقالاته : بصراحة غير مطلقة ، مفكرة يوسف إدريس ، اكتشاف قارة ، الايرادة القاهرة ، عن عمد ... اسمع تسمع ، شاهد عصره ، جيرتي الستينيات ، البحث عن السادات ، فقر الفكر وفكر الفقر ، خلو البال ، الأب الغائب وغيرها .

توفي يوسف إدريس عام ١٩٩١ عن عمر ٦٤ سنه .

ينظر حياته في كتاب أعلام الأدب العربي المعاصر لروبرت كامبل ٢/٢٣٣/٢٣٧

تبدأ هذه الدراسة باستعراض حياة يوسف إدريس واتجاهاته ككاتب اجتماعي وإبراز دوره بوصفه مصلحًا اجتماعيًا كما حاولت الدراسة طرح وجهة نظر الكاتب في تأثير قوة المال على سلوكيات الشخصيات .

ففي روايتيه (العيب والحرام) استعرض يوسف إدريس موضوع المال ، وفي استعراضه لموضوع المال في هاتين الروايتين هاجم طبقة النبلاء ودافع عن طبقة الكادحين والمضطهدين .

إن دراساتنا الحالية بعنوانها الرئيس تناقش أسلوب عرض الكاتب وتقديمه لموضوع المال وتأثيره على سلوك الشخصيات في روايتيه (العيب والحرام) اللتين أظهر فيهما الخطورة البالغة في تأثير قوة المال على سلوكيات الشخصية .

فالعديد من الشخصيات في الروايتين تسعى بنهم وراء الحصول على المال الذي لعب دورًا أساسيًا في إفساد حياتهم ، ونتيجة لهذا فقد تعامل الأغنياء مع الفقراء باحتقار كما في رواية الحرام عندما تعامل فكري أفندي مع الغرابوة باحتقار ، مما سبب فجوة كبيرة بين هاتين الطبقتين .

والجدير بالذكر أن يوسف إدريس ومن خلال شخصياته الرئيسة للروايتين (سناء وعزيزة) استطاع أن يؤكد على أهمية المال وقيمته العظيمة في الحياة مدللًا بذلك على بطل الروايتين ، حيث كان المال عاملًا رئيسًا في تحول حياتهم من الفضيلة إلى الرذيلة .

وتعد هذه الدراسة دراسة نقدية تحليلية تظهر جوانب قوة المال في إفساد الشخصيات من خلال الروايتين ، وتطرح وجهة نظر يوسف إدريس حول التأثيرات السلبية في قوة المال على سلوك الإنسان في المجتمع المصري .

أولًا : رواية العيب

تعد هذه الرواية من أهم روائع يوسف إدريس التي لعب فيها المال دورًا مميزًا ، وكانت له القوة حيث أثر على السلوك البشري لشخصياتها.

(وتعد أيضًا هذه الرواية من أهم الأعمال الروائية للكاتب يوسف إدريس ؛ لأنها تلمس إيقاعًا اجتماعيًا مميزًا على وتر حساس له هويته الخاصة وعبقه الفواح حيث تعالج قضية تشريعية من قضايا الفساد في كل صوب وحدب ، ألا وهي قضية الرشوة حيث قال رسول الله ﷺ في حديثه الشريف : (لعن الله الراشي والمرتشي والرائش).

لذلك نجد كاتبنا يحاصر مجموعة من الموظفين المرتشين في إحدى المصالح الحكومية حيث يتاجرون بضمائرهم ويساومون العملاء على قضاء مصالحهم ، وهم يتدثرون بثوب الوظيفة ويرتكبون جريمة الرشوة تحت هذا العمل الحكومي الذي خول لهم التحكم في البشر، وذلك باستخراج تصاريح البناء ؛ لذلك وجدوا في هذه الوظيفة ركيزة لهم للإثراء غير المشروع على حساب الشعب المصري المغلوب على أمره ، فمن يدفع فله التصريح ، ومن يرفض الدفع يذهب إلى الجحيم غير مأسوف عليه [1].

وهذه الأطروحة تعالج مأساة فتاة تتربع على عرش العفة والطهر ، حيث سلكت مسلكًا عظيمًا وتشبثت بالقيم والأخلاق والفضيلة ، ناهيك عن تمتعها بالجمال البارع والحسن الأخاذ ، وهي التي تمثل الشخصية الإيجابية الوحيدة في تلك الرواية ، بل هي أهم شخصيات هذا العمل الفني حيث تدور أحداث هذه الرواية حول هذه الفتاة (سناء) التي مات والدها وترك لها أمًا وأختين وأخًا ومعاشًا لا يسد رمق جوعهم . فتملكها الفقر المدقع والعوز المفجع وحاجتها للمال ورغبتها المتسلطة في حياة أفضل ، تخلصها من براثن الفقر، وتسلخها من ويلاته ، وتعتقها من رقه . فذهبت

(١) نظره نقدية في فن الرواية العصرية د/محمود دياب محمود ط٢٠٠٧ ص٢٨٠

تبحث عن عمل حتى حصلت عليه في مصلحة منوطة باستخراج تصاريح البناء ، وهذه المصلحة تضم مجموعه من العصبة الماجنة حيث تتاجر في تصاريح البناء ، فتمنح التصريح لمن يدفع الرشوة ، حتى اعتبروا هذا العمل البقرة الحلوب التي تدر عليهم المال الحرام ، فعملت سناء وسط هذه الشرذمة الماجنة ،والعصبة التي تعيش على المال الحرام ، لكن سناء التي نشأت في بيئة عفيفة ، لا تعرف للحرام طريقًا لم تنجرف مع التيار ، بل سبحت ضده ، فأوجس هؤلاء الموظفون على رأسهم محمد الجندي رئيس العصبة منها خيفة حتى أنهم لايتحدثون إلا بالشفرة أو بالهمس .

فكان ولا بد أن يجرفوها مع تيارهم ويسقطوها في جب المعصية وفي بئر الرشوة ، ولابد أن تركب معهم سفينة الحرام ، ففجر الكاتب قنبلة في هشيم الأحداث حيث عجزت سناء عن دفع القسط الثاني من المصاريف المدرسية لشقيقها أسامة ، فحرم من الاختبار، وطرد من المدرسة ، فعلم بذلك محمد الجندي ، فرسم خطة لإيقاعها في شباكه ، ونسج حولها خيوط العنكبوت ليوقعها في جب المعصية مستغلًا ظروفها ونجحت خطته عندما ضعفت سناء أمام أحد العملاء فقدم لها مائة جنيه ، فأخذتها لكي تنقذ شقيقها أسامة، وبالتالي خارت قواها أمام المال فسقطت في بئر الرشوة.

ولقد حفلت هذه الرواية بالعديد من النماذج التي لعب المال دورًا كبيرًا في سلوكها ، وكانت له الكلمة العليا والغلبة في تغيير مسار وسلوك الشخصيات أمثال سناء ، ومحمد الجندي ونبوية .

١- سنـــاء

سناء تلك الفتاة التي حظيت بقدر من الجمال البارع والحسن الأخاذ ، وتربعت على عرش العفة والطهارة ، والتي رفضت الانصياع لأوامر محمد الجندي الذي أصيب بالجشع المادي (جميلة التقاطيع ، مسمسمة ، سمراء قليلًا ، ومن كل أدوات الزينة لاتستعمل سوى الروج)[١].

وكانت طيبة السريرة رمزًا للسماحة ، عاشت راضية قانعة برزقها وبما قسم الله لها ، ولكنها امتطت صهوة جواد السعي من أجل الحصول على مال يسد رمقها ورمق أمها وأخيها ، فانتقلت إلى القاهرة بحثًا عن وظيفة لتخلصها من براثن العوز والفاقة التي أحاطت بها ، ويصف الكاتب ظروف سناء الاقتصادية . (كانت تتناقش مع أمها في كيفيه الحصول على النقود .. حتى بات واضحًا أن النقود لن تأتيهم إلا إذا فتح الله سبحانه سقف حجرتهم ، وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط [٢] ، وكذلك مثل (وليس في البيت سوى الجنيه الذي كان موجودًا ليلة أمس) [٣].

وهكذا – ومن خلال هذا الوصف السردي – يرصد لنا الكاتب ، ويرسم لنا صورة ميلودرامية تجسد بؤس سناء بطلة الرواية وتجلى الحقيقة عن فقرها المدقع وعوزها المفجع ونياط قلبها الممزق حيث أصبحت بين فكي الرحى .

وبسبب هذا الفقر الذي لازم أسرة سناء بحثت عن وظيفة فوجدتها في قسم التصاريح حيث عينت بهذه المصلحة الحكومية ، وكانت هذه الفتاة نظيفة اليد فآثرت الخير على الشر ، والفضيلة على الرذيلة ، وتاقت إلى طريق التقوى ،

(١) يوسف إدريس رواية العيب ، القاهرة سلسلة الكتاب الذهبي دار الهلال ١٩٦٢مص١٥

(٢) رواية العيب ص٧٤

(٣) رواية العيب ص٧٩

وتنكرت للشر الذي كان يجري مجرى الدم في عروق موظفي الشركة التي تعمل بها .

فكان تعيينها بهذه المصلحة لطمة على وجه جميع الموظفين ، من العامل حتى المدير؛ لأنهم توجسوا منها خيفة ، فهم باعوا ضمائرهم وتعاملوا بالرشوة ، وهم يتسترون بثوب الوظيفة ويأكلون الحرام (الرشوة) من العمل الحكومي المنوط باستخراج تصاريح البناء ، فوجدوا في تلك الوظيفة ركيزة للثراء غير المشروع .

وهذه المصلحة (تضم مجموعة من الأوغاد ، فهم جميعًا من الرجال ، وهم يشكلون عصبة ماجنة تتاجر بوظيفتها حيث باعوا جميعًا ضمائرهم في سوق النخاسة ، وعتبروا هذا العمل بقرة حلوبًا تدر عليهم المال الحرام كل يوم ؛ لذلك أسقط في أيديهم حينما انضمت هذه الموظفة إلى ركبهم ، فتمنوا أن تسير في ركابهم ، وإلا فالهلاك سوف يلحقهم أجمعين) .[١]

(المصلحة من يوم إنشائها والعاملون فيها رجال . الرجال هم الذين أنشئوها ووضعوا لها اللوائح والقوانين ، وهم الذين تولوا طوال تاريخها التنفيذ ، وهم الذين بنوها طوبة طوبة ورسموا التقاليد .

رجال كلهم رجال ، حين يشيخ منهم جيل ، ويودع العمل يحل محله جيل جديد شبان صغار بآراء جديدة ودم جديد ، ولكنهم مع ذلك أيضًا رجال) [٢].

ولذا توجسوا منها خيفة ، فيتحدثون فيما بينهم بصوت خفي في مسائل تتعلق بالعمل ، وكأنهم يتحدثون بالشفرة ، وذلك حتى لا تفهم سناء خط سيرهم .

(١) دراسات في الفن القصصي لمحمود دياب ص ١٠٣

(٢) رواية العيب ص٣

(وجد كل منهم نفسه مشغولًا بترتيب أوراق ، والتحدث إلى الرئيس الباشكاتب في مسائل تتعلق بالعمل ، مستعملًا في حديثه اصطلاحات وتعبيرات تكنيكية خاصة مدسوسة عن عمد) [١].

ومما يحمد لكاتبنا أنه يرصد الشخصية من حيث ملامحها الخارجية وحركة صراعها التي تمور داخلها حيث يغوص في النفس البشرية ، ويفسر ما يعتلج في طوايا النفس لتنكشف أمامه الشخصيات وتتجلى له الدوافع التي تحركها.

(الواضح أن الزميلة العزيزة جميله التقاطيع ، مسمسمة سمراء قليلًا ، ومن كل أدوات الزينة لا تستعمل سوى الروج ، ليس غامقًا كالسمراوات حين يضعف ، ولكنه روج مؤدب هو الآخر ليس هدفه أن يبرز جمال الشفاه ، إنما هدفه فقط أن يدل على وجودها ويحددها)[٢].

ثم يسترسل الأديب في رسم لوحة فنية لهذه الفتاة ، فيقول :

(إن الموظفة التي عينت هناك مثل (المهلبية) ، فعلًا وجدها كذلك ، وبطريقة تسيل اللعاب ، فقد كانت تبتسم على الفاضي والمليان ، ولكل من هب ودب ، وتحادث كل راغب في الحديث ، وكل شوية وشوية تمد أصابعها بسرعة لتطمئن على(القصة)، وتفرد شعيراتها أو تجذبها إلى أسفل لتعيدها إلى فوق جبهتها)[٣] .

ويجسد لنا الكاتب أسرار النفس البشرية ، ويجلى الحقيقة عن مكنوناتها الخفية ، ويرسم بريشته قسماتها السيكولوجية ، فيرسم لنا الملامح الداخلية لسناء ، وما يدور بداخلها ، وما تعانيه وخاصة في الأيام الأولى من تسلمها الوظيفة بسبب كثرة العمل وشدته حتى إنها أصيبت بانهيار نفسي ، وتصبب العرق من جبينها ومن

(١) الرواية ص٩

(٢) الرواية ص١٧-١٨

(٣) الرواية ص١٨

باطن اليدين ، فيصف لنا ذلك قائلًا : (أما في تلك الأيام الأولى فحدث ولا حرج عن العرق والمنديل الصغير، وهو ينتقل في سرعة واضطراب كمنديل الحاوي المبتدئ ، من باطن إحدى اليدين إلى الجبهة ، والخجل المشل للقلب المعمي للبصر ، والدموع . الدموع الداخلية غير المرئية التي لا تنبئ عن سكبها في المصلحة ، والدموع الظاهرة التي تتفجر بإراداتها في البيت ، ليتها كانت تملك معها القدرة على الرثاء لنفسها ، فالعكس هو الصحيح) [١].

فهي تعيش في مناخ ملوث بالرشوة والمال الحرام ، ورغم ذلك لم تستسلم ولم ترفع راية القنوط ، وإنما استمرت في جهادها ؛ لأنها ترعرعت في بيئة نظيفة حيث كان أبوها موظفًا صغيرًا بالحكومة ، وكان يقدس الحلال ، ويسعى إليه ، فكان يسعد في أول كل شهر لقرب المرتب .

(وبطريقة تحس سناء معها أن جلستها مع أمها جلسة كبار ، وحديثها حديث كبار .. حديث وجلسة ومواضيع تعيد لذاكرة سناء صورًا باهتة عن أبيها حين كان يقبض ، وتراه آتيا يومها كالمنتصر ، له حق رفع الصوت على أمها وفرض الرأي) [٢].

فكل أشخاص المصلحة مرتشون وسلبيون سوى سناء تلك الموظفة المحترمة التي علمت بما يجري في المصلحة من رشاوي ومحسوبية ، واعترضت ، ورفضت ذلك بشدة ، فحاولوا ضمها إلى مخططهم الإجرامي ، وحاولوا أن يوقعوها صيدًا ثمينًا في شباكهم ، ولكن هيهات هيهات ، فلقد تحطمت هجماتهم على صخرة دفاعها ، وباءت محاولاتهم بالفشل والخسران ، واستمرت الفتاة تسبح ضد التيار ، ولكن تأتي الرياح بما لاتشتهي السفن ، فلقد فجر الكاتب قنبلة في هشيم الأحداث

(١) الرواية ص٢٢

(٢) الرواية ص٢٨-٢٩

بسبب ما أصابها من وابل الفقر الذي ألهب ظهرها بالسياط ، فعجزت عن سداد مصروفات شقيقها اليتيم ، وحاولت بشتى الطرق المشروعة ستر سوءة أخيها ، ولكن الأبواب غلقت في وجهها ، وأذاعت هذا السر إلى إحدى زميلاتها ؛ لأن (من شيم المرأة الثرثرة فإذا خلت إلى امرأة فإنها تعتبرها ضالتها المنشودة ، لذلك تبثها أحزانها ، وتزيح الستار عن أسرارها ، ولا تحفظ شيئًا في صدرها ، فتصبح أمة لسرها بعد أن كانت سيدة تتربع على عرش هذا السر في قصر حياتها) [(١)].

ولكنها ندمت على إفشاء سرها (لروحية) زميلتها في المصلحة ، وأصيبت بالحزن (ليت ذلك اليوم لم يأت قط ، ليتها قطعت لسانها بيدها قبل أن يزلف ويخبر روحية زميلتها بالمشكلة ، ولكنه درس تعلمته ، وستوصي أحفاد أحفادها بتفاديه) [(٢)].

ومما زاد الطين بلة أن روحية أذاعت سرها في المصلحة مما جعل محمد الجندي يحاول أن يجعلها تسير في ركابهم مستغلًا قصة أخيها الذي تهدده مدرسته بعدم دخول الاختبار بسبب عدم سداد القسط الثاني من المصروفات المدرسية (وتطوع الجندي ، وأخذ على عاتقه مهمة جر رجلها وتوظيفها وأمره إلى الله في العمل الثاني على شرط أن يكون هذا مقابل أبخس نسبة ممكنة[(٣)].

ولكن سناء مازالت صخرتها صماء وسريرتها نظيفة نظافة العذراء ، ويتضح ذلك خلال حوارها مع الباشكاتب الذي يبرر أكله للحرام بحجة قلة راتبه وكثرة التزاماته ، لكنها لم توافقه لطهارة يدها وسريرتها وإيمانًا منها بأن الحلال القليل

(١) دراسات في الفن القصصي د/ محمود دياب محمود ص ١٢

(٢) الرواية ص٤٠

(٣) الرواية ص ٦٩-٧٠

أفضل من الحرام الكثير ، ولنتأمل هذا الحوار ؛ لنقف على المنظور النفسي لكل من الباشكاتب وسناء . .

لو في مكاني تعملي إيه يا بنتي ؟.

أعمل أي حاجه إلا كده . أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعهم من المدارس أحسن وأشغلهم .

قهقه الباشكاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح :

لو رضيت أنا أمهم ح ترضى ؟ ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم ؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا إيه ؟ ح يكسبوا إيه ؟.

بس دي جريمة ياعم شكري .. سرقه . دانت راجل طيب . دا كأنك بتمد إيدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني.. وبتنشل منه فلوس . إزاي ترضى تعمل كده ؟

ياستي الأخلاق الكويسة حاجه ، وأكل العيش حاجه تانيه .

أكل العيش حتى بالسرقة ؟

ولكن سناء لم تقتنع بما يقوله الباشكاتب لنقاء سريرتها وصفاء بيئتها حيث تربت في بيت المقدس الحلال ويمقت الحرام .

(ياعم شكري أفندي ..أرجوك .. أي كلام بالشكل ده بينرفزني وح يخليني أتهور . أنتوا في طريقكم وأنا في طريقي)[1].

ولم تكن سناء بمنأى عن خطط محمد الجندي الظالم الذي نسج حولها خيوط العنكبوت ودبر لها فضيحة مروعة ، شعر بها القاصي والداني ؛ حيث تربص بها الدوائر ، وأصر على أمر قد قدر.

(١) الرواية ص ٧٢

وهكذا بلغت الرواية مرحلة الحبكة حتى سدت الأبواب في وجه سناء ، فماذا تصنع فلا بد من إيجاد حل لمأساتها ، فماذا تفعل مع استمرار الجندي في مشاكساتها .

وترتفع نبرة المال مرة أخرى ويعلو إيقاعها في الرواية حيث سناء تتمرد ، وتنجح خطة الجندي حين أرسل إليها أحد العملاء من الذين يتعامل معهم ، ومن أمثاله حيث لايعرف للقيم طريقًا ، ولا للمبادئ سبيلًا ولا للأخلاق وجهة ، فقام بعمل رخيص اخترق الحجب الحاجزة لهذه الفتاه بعد ان زحفت جيوش اليأس إليها ، وتخلى عنها الصديق والرفيق ، فأصبحت ريشة في مهب الريح ؛ لذلك ضعفت أمام هذا العميل الذي أغراها بمائة جنيه ، فضعفت أمام ذلك ، وسقطت في مستنقع الرشوة ، وسبحت في بحور الفساد .

ولقد تآزرت عوامل عدة في سقوط سناء ؛ حيث مات أبوها الذي كانت تتخذ منه عصاها التي تتوكأ عليها ، وكذلك فقرها المدقع الذي اكتوت بنيرانه ، وكذلك عجز شقيقها عن دفع المصروفات المدرسية ، كل هذا أخذ بناصية سناء ودفعها إلى فلسفة جديدة لم تؤمن بها من قبل.

فالشقيق أوشك اختباره ، ولا يزال عاجزًا عن الدفع ، والأم لا حول لها ولا قوة ، فليس لديها إلا معاش بسيط اقتطع جزء منه بعد التحاق سناء بالوظيفة والفتاة لا تملك من حطام الدنيا شيئًا سوى وظيفتها ، فماذا هي صانعة في اليوم الذي طرد فيه شقيقها من المدرسة ؟

(يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شئ في سبيل أن تحصل لأخيها على قيمة القسط ، فليلة الأمس بكى .. لأول مرة تراه منذ أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل) [1].

(١) الرواية ص ١٠٢

ويبين لنا الكاتب الصراع الإنساني داخل نفسية محمد الجندي ورغبته في القضاء والانقضاض على سناء .

(لو أتيح لها أن تلقى نظرة لوجدت الجندي في حالة ما بعد النشوة ، حالة قل أن يوجد عليها إنسان ؛ إذ هي إحدى البقية الباقية من أحاسيس الحيوان الذي تفصله عنا ملايين وملايين من السنين .. حالة الإحساس بالفريسة رهن الإشارة وعلى مدى انقضاضه ، حالة السعادة البدائية الجامحة التي تدعو القط ، وبه ما به من الجوع أن يصبر على صرخاته ويتجاهلها ليستمتع بما هو أكثر امتاعًا من إشباع أية غريزة بمفردها ليستمتع بنفسه والفأر قد أصبح حبيس إرادته ونظراته يرى ارتباكه الأعظم ، ورهبته ورغبته العارمة في النجاة ، وتحفزه الهائل للهرب وعجزه الهائل عن الفرار ، الحالة التي تشبع في بعض الناس غريزة الغرائز وتنتشي بها حيوانية الإنسان. أجل .. من أين أكلك يا سناء [1].

وهكذا نجحت خطة الجندي ، واستسلمت سناء لهم ، وركبت معهم سفينة الخطر ، وسارت في ركب الشيطان ، فابتعدت عن طريق الرحمن ، وكفكفت عن مداعبة عيون الفضيلة ، وارتضت لنفسها أن تكون قربانًا لظروفها القهرية ، وتفاعلت مع المناخ الجديد وانضمت إلى الشلة وأصبحت فارسًا من فرسانها كمحمد الجندي وغيره ، هكذا يجسد لنا الكاتب في تلك الرواية مخالب القط التي أسقطت تلك الفتاه السمراء ، ووقعت في بئر الرشوة ، فلا تستطيع انفكاكًا من قيودها ، ولا انسلاخًا منها ، فنسفت جسور التلاقي بينها وبين طريق الرحمن .

وذلك بسبب قلة المال وتوحدها مع الفقر الذي ألهب ظهرها بالسياط وحاجتها الشديدة للمال ورغبتها المتسلطة في حياة أفضل تخلصها من براثن الفقر وتسلخها من ويلاته ، وتعتقها من رقه ، ناهيك عن ظهور عجز شقيقها أسامه – على

(١) الرواية ص ٤٤-٤٥

مسرح الأحداث –عن دفع مصروفات القسط الثاني للمدرسة مما أدي إلى طرده منها ، فاضطرت الفتاة إلي أن تفكر بطريقة أخرى حتى تحلل لنفسها الدخول في الصفقات المشبوهة ، وكان ضعفها أمام إغراء العميل لها بالمال نقطة تحول في حياتها ، فتحولت من فتاه صاحبة الأخلاق الرفيعة إلى فتاه عديمة الضمير والأخلاق .

وقد وصف الراوي لبعض تصرفاتها بعد هذا التحول قائلًا :

(لو عزم أحدهم على سناء بسيجاره .. قبلتها وأشعلتها ، ومضت تجرب باضطراب المبتدئة كيف تمسكها وتجذب أنفاسها وتتفادى الكحة)[١].

وحينما دعاها محمد الجندي في البداية للقائه في إحدى الكازينوهات أجابته بالرفض الشديد قائلة.

(اسمع يا محمد أفندي ... أنت عاوز تودي نفسك في داهية ... وأنا بانذرك اهيه دي آخر مرة أسمح فيها تفكر فيا بالشكل ده [٢].

ولكن بعد هذا التغيير غير المتوقع وجدها محمد الجندي من تلقاء نفسها تدعوه لمقابلتها في إحدى الكازينوهات قائلة له : ياأخي فلقتني ... كازينو الحمام ... ح تلاقيني بكره الساعة ستة .....والله آية رأيك ؟ مابلاش الكازينوهات لحسن حد يشوفنا [٣]، ولم يكن يتوقع أحد هذا التحول في شخصية سناء ، لا سيما أنها قبل ذلك اليوم قد أعطت درسًا صارمًا عن الأخلاق لمحمد أفندي والباشكاتب وباقي الزملاء رافضة تبريرهم لما يفعلونه قائلة : (كل همكم أنكم تورطوا الناس وتحللوا الفساد في نظركم عشان يغلطوا ويتورطوا ويبقوا زيكم وما يصبحش فيه حد أحسن

(١) الرواية ص١١١

(٢) الرواية ص ٩٣

(٣) الرواية ص١١١

من حد ....ولو كل واحد أتزنق فك زنقته بالسرقة وبالقتل كان زمان الدنيا بقت كلها حرامية وقتالين [١].

فالسر في تحول شخصية سناء هو قلة المال وفقرها المدقع الذي جعلها تسير في ركابهم وتجلس حيث يجلسوا ، فأصبح العامل الاقتصادي بمثابة العصا السحرية التي تفعل المعجزات ، فهذا العامل هو الذي غير حياة سناء وسلوكها ، وجعلها لا تستطيع أن تسبح ضد التيار ، ولا تستطيع أن تحدد لرجلها قبل الخطو ممشاها ، وأصبح المال هو الدفة التي تسير زورقها الصغير بل يسير الأحداث في القصة كلها.

ومن هذا المنطلق فإن المال قد أسهم بقدر كبير في التشكيل النفسي لشخصية سناء وغير من سلوكها .

ومما يحمد لهذا الكاتب أنه(يترجم مشكلات مجتمعه في فنه الروائي بمعنىً يتأثر به ، ويعبر عن قضاياه ، ويعكس مشكلاته وهمومه)[٢].

وهكذا أصبح تجسيد هذه الشخصية شاهدً للأديب أنه بارع في بناء شخوصه ؛ حيث إن (الفنان هو الشخص الذي يحاول إعادة صياغة الوجود ، وهذا التصييغ لا يبدأ بيديه بل يبدأ في ذهنه ، وطبعي أنه عندما يحس بضرورة إعادة صياغة الوجود ، فإنه بالتاكيد لا يكون راضيًا عن الصيغ الموجودة والمتخصصة بالعمل في الواقع الآن والحاضر والمتحقق حولنا [٣].

(١) الرواية ص٨٥

(٢) وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي محمد النويهي معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنه ١٩٦٧ ص٤٣

(٣) سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب يوسف ميخائيل أسعد الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٦ص٨٥

وفي هذه الرواية يرصد الكاتب – بحاسته الفنية الفترة الزمنية التي اشتهرت بها – صراعًا حادًا بين المادة والروح حيث كان للمادة قصب السبق وموضع التقديس في محراب البشرية ، كما تعالج هذه الرواية الواقع المتأزم للإنسان المصري الذي يعاني من الفقر الذي يعد سوطًا يلهب ظهره ، ولاسيما لو تآزر معه الجهل والمرض ، كما تعالج في نفس الوقت مأساة الإنسان الذي يبحث عن المادة في كل صوب وحدب ، وفحواها إحدى النساء التي سقطت في بحر المعصية بسبب الفقر الذي توحدت معه وارتبطت به ارتباط العلة بالمعلول .

هكذا لعب العامل الاقتصادي دورًا مميزًا في تغيير سلوك الشخصية ، فأصبح بمثابة العصا السحرية التي تأتي بالمستحيل ، إذ هو من الأسلحة البتارة التي تحدد مصائر البشر وسلوكياتهم حيث ترفع قومًا وتضع آخرين .

وقد رأينا شخصية سناء رغم تحديها السافر للشيطان قد غير المال سلوكها ، فسقطت في بئر الرشوة أمام إغراء مائة جنيه ، وكان السبب في ذلك فقرها وحاجتها للمال ، فهي مسئولة عن أم ترملت في شرخ شبابها ، وعن شقيقها أسامه الذي أصابه الفقر ، فعجز عن سداد مصروفاته المدرسية ، كل ذلك أدى إلى انهيار الفضيلة وتقويض عرش نزاهتها ، وفتح قلبها للشيطان وتحولت حياتها من الفضيلة إلى الرذيلة ، والسبب هو المال ، فالمال هو غاية كل حي ، وهو نقطة ضعف الإنسان ، فلا قيمه للحياة بلا مال .

لذلك ضعفت سناء أمام المال بسبب ماتعانيه من شظف العيش وجفاف ينابيع الخير ، فباتت بين مخالب الفقر يفترسها ، وينقض على آمالها مما جعلها تستسلم وتضعف أمام المحاولة الأولى للإغراء تاركة بحور الفضيلة سابحة في بحور الحرام .

٢ـ محمد الجندي

هذا النموذج البشري الذي يعمل موظفًا صاحب مكانة مرموقة ، وهو من بين صفوف المثقفين بإحدى المصالح المنوطة باستخراج تصاريح البناء حيث انصرف إلى الاختلاس وتبديل الأموال بالمصلحة التي يعمل بها.

فهو شخصية غير سوية ، تجسد الطمع في صورته غير النقية ، هو إنسان بلا ضمير ، باع ضميره في سوق النخاسة ؛ لذلك أسهم بدور كبير في سقوط سناء حيث توحد مع الشيطان وسلك مسلكًا لا يتفق مع طريق الرحمن ، فلم يكتف بانحرافه واختلاسه الأموال ، لكنه نصب شباكه لسناء ليؤكد شخصيته الانتهازية ، فهو أناني نرجسي يحب نفسه حبًا جمًا ، ويسعى إلى تحقيق السعادة له ، ولو كان على حساب الآخرين ، فتغلغل في دروب الرذيلة ، وهو يملك أدوات هذه الطريقة ، ويتذرع بأسلحة فتاكة ، أهمها سلاح المال ، فيصوب هدفه نحو هذه الفتاه القروية السمراء ، فيغريها بالمال حتى تسقط معهم في بئر المعصية ، ووصف الكاتب سلوكه وشخصيته الخادعة قائلًا : (عندنا محمد أفندي رجل زي أولية الله تمام ، حاجج مرتين وطول النهار السبحة في أيده وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ميصحش .. وأعرف لك بعد كل ده قال بياخذ على كل استمارة جنيه) [١].

(وإذا تصادف ووجد الرخام أو القيشاني في أي دوره مياه ... لا يستريح إلا إذا أخرج قلمه الكوبيا وخطط وشخبط حتى يشوه من المنظر) [٢].

(١) الرواية ص٦٦

(٢) الرواية ص٨٦

هكذا يرصد الكاتب شخصية محمد الجندي من حيث ملامحها ، فهي شخصية فاسدة ، تحمل بين طياتها آيات النفاق والمداهنة والرياء ، ثم بين الكاتب هوية محمد الجندي الذي يتزعم العصبة الماجنة ، حيث يتسم بالذكاء ، وبحثه الدائم عن المرأة في كل مكان قائلًا : (إن يترك الجندي مع سيدة بمفردها تقابل عندهم المراهق مع سيجارة ، أو المراهقة مع تليفون ، وضع معناه كارثة محققة) [١].

فهو شيطان من شياطين الإنس ، يعشق المال ويضعه في محراب التقديس ، لقد كان المال ضالته المنشودة لذا لجأ إلى الحرام ، في جمعه للمال من الرشوة وفي ظله استطاع أن يشبع شهواته وملذاته ، حيث ساعدته سناء ، وهو يساوم أحد الزبائن على مبلغ الرشوة حين تزلزلت الأرض تحت قدميها ، وبلل العرق وجهها ، وهي ترقب السقوط الوظيفي قائلًا : (وجدت نفسها تريد بأي ثمن أن تعرف إن كان ما قدرته صحيحًا أم هو من قبيل التخمينات ... أم لعل سبب بقائها هو الارتباك العنيف الذي اجتاحها وفصد العرق من كل جسدها وتسمرها في مكانها ، وكأنها بسبيلها إلى حضور أمر مخجل مجهول لا تعلم مدى بشاعته ! عيب عيب !)[٢].

وهي منذ الوهلة الأولى لم تطمئن إليه بل وصلت إلى حد الكراهية من ناحيته (ولقد اطمأنت لهم جميعًا ، وفي وجودهم لم يكن جهاز رادارها الأنثوي ينقل إليها أية نوايا ذكرية خافية جميعًا ماعدا الجندي لقد كان الجهاز الكامن في أعماقها يدق كلما حاول أن يقترب منها أكثر من اللازم). [٣]

(١) الرواية ص١٤

(٢) الرواية ص٥١

(٣) الرواية ص٥١

وهذا يدل على ذكاء ونظرة سناء الثاقبة في الشخصية التي أمامها فهي تراه رجلًا بعيدًا عن العفة والطهر والأخلاق ظن بل يتوحد مع الشيطان ، فهو زير نساء ، يقود سفينة الرشوة في مكتب التصاريح ، يلهو ويلعب ويرتشي ويتزوج ويطلق ، فليس لديه مبادئ كل ما يهمه المال لقد كان يتقاضى نصيب الأسد من الرشاوى ، فلم يكن قدوة طيبة ولا أسوة حسنة إنما كان رمزًا من رموز الفساد في الأرض وعلماٍ من أعلام الشيطان ، فهو متوحد مع الفوضى والاستهتار .

(هذا الشخص الجندي لا يعمل طول اليوم بمليم ، ودائم الغياب والتأخير، وكثير الأخطاء ، يخرج من الواقعة ، حتى إذ بلغت الواقعة المدير ، خروج الشعرة من العجين دون أن يمسه مجرد لفت النظر)[١]

وهو زير النساء ، فلم تسلم منه سناء ، فتغزل فيها مغازلات فاضحة .

(ولم تكن سناء في الحقيقة تتصور- رغم كل ماذكره عمها - أن تبلغ الوقاحة حد أن يبدأ زميل لها في العمل يغازلها مغازلات عمية سمجة فاضحة...صباح الخير يا حلو يا مدوخني أنت يا حلو .. والنبي أنا دايخ و حاقع .. دانا خلاص وقعت)[٢]

ومحمد الجندي يغازل سناء ليوقعها في شباكه ؛ لأنه يتوجس منها خيفة لمعرفتها بالرشوة ، والهدف الأساسي من ذلك يريد أن يوقعها في بئر المعصية وتركها للفضيلة ، ولقد نجح مخططه وأسقط سناء في جب المعصية مستغلًا الخبر الذي زفته إليه روحيه صديقتها ، وهو حاجة أخيها لمصاريف المدرسة ، فبدأ يضرب على هذا الوتر وتر نفسها المتهرئة ونياط قلبها الممزق مع توحدها مع الفقر والفاقة .

(١) الرواية ص٢٣

(٢) الرواية ص٦٦

والكاتب يرصد لنا خلال حوار يبين موقف سناء من تلك الشخصية التي تفكر في المال ليلاً ونهارًا وكيفيه الحصول عليه مع عدم الاعتداد بسلامه الطريق وشرعيته ، سواء أكان مشروعًا أم غير مشروع .

(أنت صحيح لابس بدلة واسمك السيد محمد أفندي الجندي وليك مكتب محترم إنما أنت زيك زي أي نشال في الشارع أو أي حرامي غسيل – سبتني عشان أتزنق . ولو كل واحد أتزنق فك زنقته بالسرقة أو بالقتل كان زمان الدنيا بقت كلها حرامية وقتالين . إنما ده ما بيحصلش لأن الناس دايمًا بتساعد المزنوق . عمرهم مايسيبوه يقف لوحده . ولما يسيبوه عشان يدوق الزنقة يبقوا هم الغلطانين . هم المجرمين بالضبط حكمهم حكم اللي بيحرض على الفساد . أنت كنت مش عايزني أدوق الزنقة . أنت بتكذب على نفسك . أنت كنت عايز تحرضني عشان أمشي في الطريق الغلط ، إنما بعدك ! أنا نضيفه ،الدنيا كلها تتوسخ وح أفضل طول عمري إن شاء الله نضيفه) . [1]

فيرد عليها محمد الجندي بلهجة فيها استخفاف قائلا :

(كلامك كله جايز ياست سناء ، وكل اللي يهمنا إنك تبقي أنتي وتفضلي حلوه ونضيفه وفوق الناس كلها ، يمكن عندك حق . إيش جاب لجاب ؟ أنتي في السما فوق وإحنا في الأرض . يمكن تحت الأرض كمان . إحنا ناس حرامية حلل .. مين عارف ما يمكن إحنا كده صحيح وماحناش عارفين ؟)[2]

ولقد انبرى السرد القصصي لتجسيد ملامح شخصية محمد الجندي في نظر سناء ليكشف عن أغوارها حيث تلعب دورها الخطير في النظام الوظيفي في تلك المصلحة .

(١) الرواية ص ١١٨– ١١٩

(٢) الرواية ص ١٣١

ورغم ذلك لم تكن صادقة في قولها (أنا نضيفه وح أفضل طول عمري إن شاء الله نضيفه) ، وقد بان صدق محمد الجندي في قوله (كلامك كله جايزياست سناء) ؛ إذ هو خبير بالنساء ؛ لقد سقطت سناء في بئر الرشوة وجب المعصية حين اهتزت ثقتها بنفسها ، وشعرت بأنها مقهورة من الأيام والفقر والعجز عن سداد المصاريف المدرسية لأسامة ، فأخذ الجندي على عاتقه إخضاعها للسير في ركابه ، فنجحت خطته واستوت على الجودي حيث رسمها بحكمة ودقة وباركها الشيطان مستغلًا عجزها عن دفع المصاريف المدرسية لشقيقها ، فعمل بالمثل (اطعم البق تستحي العين) فقام بتنفيذه تنفيذًا دقيقًا عن سبق إصرار وترصد ، فنال من كرامتها ، وجعلها تسقط في بئر الرشوة .

كل ذلك فعله محمد الجندي من أجل أن يأخذ الرشاوي ممن يريد تصريحًا للبناء دون توجس خيفة من سناء ؛ لأنها أصبحت مثله ، فمن أجل المال توحد مع الشيطان ، وقاد عصبة ماجنة تعمل بالرشوة .

ومن هذا المنطلق جاء التشكيل النفسي له حيث حدد الكاتب خطى شخصية محمد الجندي على الكره الأرضية إلى عوالم جمع المال كي يحقق الحصول على أكبر قدر ممكن منه حتى يضمن سعادته ، لقد كان المال ضالته المنشودة ، وأصبح أيضًا سلاحا بتارًا لديه ، فإذا ما رأى امرأة جميلة أصر إصرارًا شديدًا على بلوغ مرماها ، سواء بالحلال أم بالحرام مستعينًا على ذلك بالمال كما فعل مع سناء ، فهو يتزوج ويطلق ، ولا يأبه بقيم أو مبادئ ، فكل ما يهمه هو المال .

(وكيف أن له زوجتين والثالثة تقاضى منها ثمن الطلاق .. وكم استبشع عقلها الذي كان لا يزال بناتيًا حالمًا في آرائه بكل ما سمعت ، وكم أصبح الجندي في رأيها بشعًا إلى درجه تتقزز فيها من مجرد أن تراه يقطع عمله ، ويتحدث ، أو يضحك أو

يروي نكته لا يقهقه لها أحد ، كم تمنت في لحظاتها لو كانت رجلًا ؛ لتلكمه بشده وتعلمه الأدب.)[1]

٣ـ صفوت

هو الذي يعمل الباشكاتب في المصلحة المنوطة باستخراج تصاريح البناء ، وهو الفقير المعدم الذي يعاني من شظف العيش وجفاف ينابيع الخير ، فرحفت ظلال اليأس على رب الأسرة واستبد به الحزن ، وكان من الفقراء الذين حرموا من المال ، وأوتو حظًا عظيمًا من الذرية التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الغرق في بحر الموت ؛ لذلك حاول الاعتصام بالعمل نظير أجر ، علـه يكون الجبل الذي يعصمهم من الغرق .

ولقد جسد الكاتب المأساة الإنسانية الدامية لصفوت الباشكاتب الذي توحد مع الفقر ، فلجأ إلى الرشوة ليداوى جراحه ، وتكون ترياقًا يشفيه من سموم الفاقة ، ولكن متى كان الحرام ترياقا وشفاء من الفقر ، ولنستمع إلى الحوار ليبين الحالة الاقتصادية لصفوت الباشكاتب ، ويبين الصراع الدموي بين المادة والروح ، فإذا تغلبت الأولى على الثانية توحد الإنسان مع الشيطان وان تغلبت الثانية على الأولى أصبح الإنسان يسير في طريق الرحمن .

(الدنيا يا سناء يا بنتي ، العيشة .. أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيه و٢٣٠ مليم ومصاريف بيتي في الشهر ماتقلش عن ٥٠ أو ستين .عندي ولدين في الجامعة ، وبنتين وولد في الثانوية ، وبنت في المعهد ، وعيلين صغيرين في ابتدائي ، ولي أخت مطلقة وقاعدة معايا هي وولادها ثلاثة . منهم واحد طلعناه من المدارس وبيشتغل عامل في مصنع . ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه ، ومع

(١) الرواية ص ٢٥

كده إيجاره ثمانية جنيه ونصف . بند الأدوية بس بياخذ منا بالميت خمسة جنيه في الشهر غير الدكاترة . لو في مكاني تعملي ايه يا بنتي ؟.

أعمل أي حاجه إلا كده . أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعهم من المدارس أحسن وأشغلهم .

قهقه الباشكاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح:

لو رضيت أنا أمهم ح ترضى ؟ ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوهم؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا ايه ؟ ح يكسبوا ايه ؟.

بس دي جريمة يا عم شكري .. سرقه . دأنت راجل طيب . دا كأنك بتمد إيدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني.. وبتنشل منه فلوس . إزاي ترضى تعمل كده ؟ ياستي الأخلاق الكويسة حاجه ، وأكل العيش حاجه تانيه .

أكل العيش حتى بالسرقة ؟

يا بنتي أنتي لسه صغيرة ع البر ماشيلتيش هم المسئولية .

لما تكوني مسئولة عن جيش زى اللي أنا مسئول عنه .. وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك . مش تسميها سرقة أبدا . أنا بسرق مين ؟.

المواطنين .

دول أغنياء ..وأنا ما باخدش غصب عنهم هم اللي بيدفعوا من نفسهم . يبقى الحكومة.

الحكومة خسرانه إيه ؟ هو أنا باختلس من أموالها . حق الحكومة محفوظ ماحدش بيقدر يمد إيده عليه

ياعم شكري أفندي .. أرجوك .. أي كلام بالشكل ده بينرفزني وح يخليني أتهور . انتو في طريكم وأنا في طريقي [١]

(١) الرواية ص ٦٩-٧٢

هذا الحوار يترجم لنا المحور النفسي للباشكاتب حيث يعلن مبرراته التي تسوغ له أخذ الرشوة فهو يبني على أسس واهية ، بل على أوهام وخيالات ، وتطل من خلال خيوط السرد القصصي حده الصراع بين المادة والروح لدى البشر والذي يتولد من التجارب الحياتية والتراكمات الشعورية التي تمور في النفس البشرية وذلك لأن (القصة معرض للتحليل النفسي ، حيث يقوم الكاتب بتشريح نفسي للشخصيات مجسدًا أحده الصراع التي تختزن في مكنون النفس للبشرية [١].

ومن خلال السرد الوصفي للحالة الاقتصادية للباشكاتب يوضح لنا الخط الدرامي للشخصية وحاجته للمال ، وهكذا أصبح المال بمثابة العصا السحرية التي تصنع المعجزات .

فالمال هو السبب الذي جعل صفوت يتوحد مع الشيطان ويسقط في بئر وجب الرشوة ، فكان المال شغله الشاغل لعله يخلصه من براثن الفقر والفاقة وينقذ أسرته من الجوع ويوفر له الرغيف ، ولكن هذه فلسفة عقيمة وسلوك شاذ وأمر يندي له جبين الأخلاق ، ولا يتفق مع جوهر الدين الإسلامي الحنيف الذي حجب الجنة عن الراشي والمرتشي وعن الذي يبيع ضميره في سوق النخاسة ، لقد سلك صفوت مسلكًا قبيحًا لأنه آمن بأن المال هو ضالته المنشودة ، وهو السيادة والقوة .

حقا أن البعد السيكولوجي لدى هذه الشخصية قد صرفها عن الاهتمام بالمبادئ الإسلامية ، وكان اهتمامه منصبًا على جمع المال ، فأصبح ضالته المنشودة وانصاع إلى رأى الشيطان وآنس فيه رشدًا .

هكذا يتغلغل بنا الكاتب في غياهب الفساد الحكومي الذي استشرى في بعض المصالح الحكومية ، ويعالج أيضًا قضية اجتماعية من منظور نفسي ، ويصبغ

(١) محاضرات في القصة القصيرة محمود دياب ص ٦٢

نظرة شخصياته بصبغة مادية بحتة ، إيمانًا منهم بأن المال هو كل شئ في الوجود ، وهذه النظرة المادية هي سمة العصر الذي نعيش فيه .

وهذه الرواية : تمثل قطاعًا عريضًا من حياة الموظفين حيث يقدم لنا مجموعة من الناس يعيشون في تلك المصلحة على هامش الحياة من الذين طحنتهم عجله الحياة وفساد الأوضاع الاجتماعية ، فحولتهم إلى نفايات بشرية ، يعيشون حياة غريبة مليئة بالانحرافات .

هكذا لعب العامل الاقتصادي دورًا مهمًا وكانت له الغلبة والقوة في تغيير سلوك الشخصيات في هذه القصة حيث كان منهم من يملك المال من طريق غير مشروع ومنهم من يملك الفقر والمبادئ ، ولكنه سقط في بئر الرشوة عندما عضه الفقر بنابه ، وكشر له الزمان عن أنيابه ، فمزق نياط قلبهم ، مثل سناء والباشكاتب ، لقد أراد يوسف إدريس أن يلامس الوجع الإنساني لدى الطبقات الكادحة الذين يعملون ليلًا ونهارًا من أجل سد رمق الجوع ، وكذلك يلامس الجدل الفكري الذي يدور بين الموظفين في أحد القطاعات الحكومية حيث دار جدل فكري بين المتمسكين بالقيم مثل سناء وبين الذين لا أخلاق لهم ولا قيم ولا مبادئ مثل محمد الجندي . فقلة المال ومصاحبة الفقر والطمع هو الذي دفع موظفي المصالح الحكومية إلى اللجوء إلى الحرام وقبول الرشاوى حتى يستطيعوا أن يعيشوا.

ثانيا :رواية الحرام

رواية الحرام هي إحدى الروائع القصصية ليوسف إدريس التي صور فيها حياة عمال التراحيل (الغراب) وهي فئة مهمشة من طبقات الكادحين في المجتمع القروي والمصري.

هذه الأطروحة تحمل صراعًا خطيًا بين الحلال والحرام ، وبين الغني والفقير ، وهذا الصراع بين الفئة الفقيرة ، وهم الغراب ، والفئة الغنية ، وهم أهل العزبة .

ولا تثريب على الكاتب في رصده لهذه الظواهر الإنسانية الخطيرة لأن القصة (معرض للتصوير والتحليل ، يوحي برموزه وإشاراته إلى القارئ بالغرض الذي رمى إليه الكاتب القصصي) [١].

والقاص ككل فنان مصور للحياة في مختلف ألوانها ، يترجم عما يعتلج في رأسه ، ويحتبس في صدره من معان ومشاعر ، فهو إذًا كاتب يكتب لتصوير هذه المعاني وإيضاح هذه المشاعر، ومعاني القاص مستمدة من الواقع ، تملأ سمعه وبصره ، أو في نطاق الجو المحلي الذي يعيش فيه ، أو مستمدة من صميم النفس البشرية ، تلك النفس الثابتة بميولها الخالدة بغرائزها [٢].

والقروية التي يقدم مأساتها يوسف إدريس هي (عزيزة) الفتاه الجميلة ذات أهداب وشعر ونهود ، تضع الكحل ، وتتمتع بقدر من الجمال البارع والحسن الأخاذ ، وظلت هكذا إلى أن زوجوها بشاب فقير يفلح في الأرض ، وهو(عبد الله) الذي يعمل مع عمال التراحيل ، ومنذ أن تزوج عزيزة لم تعد العربات تحمله وحده بل أصبحت تحمل معه عزيزة ، وبدل من اليوميه أصبح يقبض يوميتين ، واستمر على

(١) دراسات في القصة العربية الحديثة د/محمد زغلول سلام ط الكاتب المسرحي للطبع والنشر ١٩٧٣ ص٣١.

(٢) دراسات في القصة العربية الحديثة محمد زغلول سلام ص

ذلك سنين طوالًا حافلة قضاها مع عزيزة ، وأنجبا عبد الله ، وناهيه ، وزبده ولكنهم جميعًا عانوا من الفقر والجهل ، من الفقر والجهل نسجوا خيوط حياتهم ، فكانا يقبضان القبض من الحاج عبد الرحيم في موسم القطن ، ويعيشون جميعًا عليها بقية العام . يعيشون غصبًا ومحايله ، وبالجبن أحيانًا وبالعيش الحاف والملح أحيانًا أخرى ، وظلوا هكذا حتى هبت عليهم ريح الفراق ، وكشر لهم الزمن عن أنيابه ، فعضهم بنابه ، ومرض الزوج ، فمزق قلبها ، وأصيبت بجرح لا يندمل ، وزلزلت الأرض تحت قدميها ، فرفضت عزيزة أن تعمل وحدها مع عمال التراحيل ..

وعاشت في هذه الأجواء القاسية تعمل كخادمة ؛ لتكسب قوتها وقوت أطفالها وزوجها المريض ، وجرت الإحداث ، واشتد المرض بزوجها ، وطلب منها في إحدى الأيام بدلال المريض أن تأتيه بحبة بطاطا ، وما كان من الزوجة الوفية لترفض له طلبه فحملت فأس زوجها وتوجهت إلى مزرعة بها نبات البطاطا ، وبدأت تحفر في الأرض ، وإذا بابن صاحب الحقل (محمد بن قمرين) ، فسألها عما تفعل فرفعت رأسها ، وعدلت ظهرها ، وقصت له الحكاية فأعطاها حبة البطاطا وأرادت الرجوع بسرعة لزوجها وأطفالها لكن مع شكرها ودعواتها لمحمد بن القمرين ورجوعها للخلف لم تنتبه للحفرة التي كانت خلفها فسقطت في تلك الحفرة فساعدها محمد ابن القمرين في خروجها فوجدت نفسها في حضنه ، وقد أطبق عليها بذراعيه.

فارتعشت ونسج محمد نسيج العنكبوت حول عزيزة بغية إيقاعها في شباكه ، فعزف على إيقاع النفس الممزقة من الفقر بكلمات تضرب على وتر حساس ، فهجم عليها الذئب البشري ، فسلبها أعز ما تملك وقضى على الأخضر واليابس من عفتها .

وظلت تئن بعدما حملت منه سفاحًا ، عاشت بتلك الجريمة التي أوقعها بها هذا الذئب ، حتى ولدت طفلًا نزل صارخًا ، وبلا وعي وضعت يدها على فمه لتغلقه ، وضغطت بأصابعها خوفًا من الفضيحة حتى سكت الطفل ، وأصبح بلا حراك ، وهي تهتف مرتعشة مات مات ، فتركته وحيدًا ، وبعد أيام يعلم فكري أفندي المشرف على عمال التراحيل حكايتها ، فيطمئن قلبه ؛ لأنه كان شاكاً في ابنته (لنده) التي أصابها المغص في ذالك اليوم ، فذهب إلى عزيزة ، وستر موضوعها عن الناس ، ولكن عزيزة مرضت بحمى النفاس وماتت .

هذه القصة تكشف وتصف الواقع الذي عاشته عزيزة ؛ إذ (القصة أقصر أنواع الأدب إلى واقعنا الاجتماعي ، لأن الكاتب أيًا كان جنسه أو نوع كتاباته هو ابن المجتمع ، وثيق الصلة بإحداثه اليومية ، شاء أم أبى ، من هنا كانت الصبغة السائدة في معظم الكتابات أنها مستوحاة من الإحداث الاجتماعية. [١]

والدافع الأساسي في الفن القصصي عمومًا هو تحديد موقف الكاتب من الواقع، وشعوره نحوه وتعاطفه أو عدم تعاطفه مع هذا الواقع الموجود بالفعل ، بحيث تأتي قصصه وكتاباته معبرة صادقة زاخرة باللمسات الفنية التي تهز شعور القارئ ؛ لأن الكاتب يعرض الحياة من خلال نفسه المرهفة وذاته الحساسة [٢]

فالقصة تنقل لنا الواقع المعيشي من خلال رؤية الكاتب الفنية ، ومن النماذج البشرية التي ساقها الكاتب لنا ، وهي الفتاه عزيزة حيث وضعها تحت الميكروسكوب المجهري متجسدة في عزيزة كما تجسدت في (محمد بن القمرين) الذي انقض عليها ، فقضى على الأخضر واليابس من

(١) دراسات في الفن القصصي د/محمود دياب محمود بدون ص ١٨٥

(٢) القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية بين الرومانسية والواقعية طلعت صبيح السيد مطبوعات نادي الطائف الأدبي

عفتها ، إن تحليل الشخصيات التي أثر المال في سلوكها في هذه الرواية يتمثل في الآتي :

١- عزيزة

هي بطلة رواية الحرام ، وهي نموذج بشري أفاء الله عليها بنعمة الجمال ، لكنها وقعت تحت نير الفقر والجوع والمرض ، فشكل هذا الثالوث المدمر حياتها وقضى على الأخضر واليابس كما قضى على آمالها ، فاكتوت بسياط القهر ، وشربت من كؤوس الذل و الهوان ، فكان الفقر يقف لتلك الفتاة بالمرصاد ، ويتربص بها الدوائر من كل صوب وحدب .

ويلعب الفقر دورًا في إصابة عزيزة بالقهر حيث رحلت مع زوجها عبد الله بحثًا عن العمل ، فعمل زوجها عاملًا زراعيًا أجيرًا نظير قروش معدودة ، ورافقته زوجته التي أصابها الفقر أيضًا والجوع (كانت عزيزة ذات يوم بنتًا حلوة ذات أهداب ، وشعر ونهود ، تضع الكحل وتطققط بألشبشب إذا صارت .. إلى أن زوجوها إلى عبد لله .. وكانت لها ليلة دخله .. وصباحيه لم تستمر إلا صباحًا واحدًا ، والصباح الذي يليه كانت في الغيط مع زوجها) [١].

فمن خلال هذا السرد صور الكاتب عزيزة صورة واقعية لفلاحة مصرية بشكلها وتصرفاتها وبراءتها ، عانت من الفقر منذ نشوب أظافرها ، فكان بينها وبين الفقر علاقة وثيقة وعروة وثقي لا انفصام لها ، حيث لم يكن الفقر والجوع يستغنيان عنها البتة ، وزادها البؤس عندما مرض زوجها فراحت تجوب القرية بحثًا عن عمل بعد أن عضها الحزن بنابه ، وكشر الزمان لها عن أنيابه ، ولاسيما أنها (أم أيضًا لولد وبنتين منه ، عاشوا جميعًا في قرية من قرى الغربية وليس لزوجها مورد رزق

(١) ليوسف إدريس رواية الحرام القاهرة سلسلة الكتاب الفضي دار الهلال ١٩٥٩م ص٢٤

ثابت من أرض أو عقار ، وكل اعتماده كان على ما يؤجر عليه من أعمال يؤديها بفأسه) [1].

فهنا عبر الكاتب عن شقاء هذه الأسرة وعذاباتها بسبب الفقر الذي نشب أظفاره في جسدها ، وألهب ظهرها بالسياط ، ورسم لوحه لتلك الأسرة التي تعبٌ من الفقر عبًا ، وتظهر منها رائحة الفاقة والعوز والجوع .

وتجرى أحداث الرواية فتجسد للرائي حالة الفقر والشقاء ، حيث يرقد زوجها عبد الله منزويًا في إحدى زوايا الحجرة يئن تحت أثقال الداء ، وتقف بجواره الزوجة ، وتنهمر الدموع من عينيها ، وهي في زهرة العمر، غير أن الهموم قد سطرت على جبينها خطوط الشيخوخة ، ورسمت على محياها الجميل علامات السهد ومعاني الشقاء ، فتحدث الكاتب عن هذه الأسرة وعن أثر موت العائل الذي حاصره المرض فأقعده عن العمل .

ولا تثريب على الكاتب في رصد مثل هذه الظواهر الإنسانية الخطيرة فإنه بمرض الزوج باتت هذه المرأة بين مخلب وحش الفقر يفترسها ويقضي على أمالها ؛ لذلك أصبح العمل في نظرها العصا السحرية التي تخلصها من براثن الفقر ، فعملت بعد مرض زوجها كخادمة في بيوت أهل العزبة ، وتعود بقرش أو قرشين ؛تسد بها رمق جوع الأولاد ، وتوفر متطلبات الزوج

والذي أرق عزيزة في الحقيقة هو مرض زوجها ، فاغتال القلق أمنها وأمانها ، وأخذها من بين يديها ومن خلفها ، فدفعها إلى أن (تخبز للجيران أحيانًا ، وتلم روث البهائم ، وتبيعه ، وتسرح بالحطب إلى المركز ، وتعود بقرش أو بقرشين ، وفي كل أسبوع أو عشرة أيام تحظى بيوميه ، وعبد الله راقد في صحن دارهم الواطئة

(١) اتجاهات الرواية المصرية شفيع السيد دار المعارف ص٢١٢

، بطنه عال ، وصوته واهن ، ويده الصفراء تربت على عبد الله الصغير في ناحية ، وعلى أخته في الناحية الأخرى)[1].

يجسد لنا الكاتب حجم المأساة التي تعيشها الأسرة حيث التهمها وحش الفقر ، وزلزل الأرض تحت أقدامها ، وحطم جوارحها ، ومزق قلبها .

ويبرز أيضًا خلال التقرير السلبي – السابق – المحور الاقتصادي لهذه الأسرة التي تسبح في بحور الفقر في الوقت الذي ينعم فيه أهل التفتيش بالمال ؛ لأنهم ينتمون إلى طبقة الإقطاع في المجتمع المصري ، وتلك الطبقة الارستقراطية هي المالكة للأراضي الزراعية .

وتجري حوادث الرواية حيث اشتد المرض على زوجها ، فاشتهى ذات يوم البطاطا ، وكانت الأمنية الأخيرة له في حياته ، وما كان من الزوجة الوفية لترفض له طلبه فأخذت تبحث في كل مكان حتى عثرت على ضالتها في حقل ابن قمرين ، وأخذت تضرب الأرض بفأسها ؛ لكي تقلع بذور البطاطا ، وتعود لزوجها بما يريد ، ولكن ظهر على مسرح الأحداث فجأة (محمد بن القمرين) ابن صاحب الحقل شاب قوي مفتول العضلات (وحملت عزيزة فأس زوجها الصدئة وتوجهت لتلك الأرض علها تحصل على قطعة بطاطا غفل عنها حاصدها ، وحفرت في الأرض عدة حفر ، ولم تكن تدري أنها حفرت قبرها بيدها ، وبينما هي تعمل وتلهث وقد شمرت ثوبها الأسود وربطته حول وسطها كما يفعل الرجل وحتى قبل أن ترفع رأسها كانت قد رأت خيالًا ثم سمعت صوتًا يقول : بتعملي إيه يابت ؟ عرفت أن صاحب الصوت هو محمد بن قمرين ، ورفعت عزيزة رأسها ، وعدلت ظهرها ، وقالت له الحكاية ، ورجته أن يسمح لها بمعاودة البحث .. ويبدو أنها صعبت على محمد ، فلم يوافق على معاودة الحفر فقط ، ولكنه كان شهمًا ، فقال لها : عنك انتي وخلع جلبابه ،

(١) رواية الحرام ص١٤٤

وأخذ منها الفأس ، وتلفت بعين خبيرة ، ثم انتقى مكانًا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه ، وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه ، وتقارن بين حفرها وحفره ، هو الرجل الذي يذكرها بعبد الله حين كان يعمل ، وتصبح تلك العضلات البارزة في بطن ساقه وتتكور تلك العضلات الأخرى في بطن ذراعه ، ويلهث لهاث المتعب ، ولكنه لهاث الرجل حين يعمل ، وهو لهاث منتظم قوي وقور [١].

ومن خلال الوصف السردي تبين أن عزيزة أعجبت بهذا الشاب مفتول العضلات وبدأت تقارن بينه وبين زوجها الذي يرزح تحت نير المرض والعجز ، وهو افتتن بجمالها وعشق بساطتها فقام باغتصابها بعد أن ساعدها على قلع البطاطا ، وكان ذلك مقابل مساعدته لها ، وقاومت عزيزة محمد بن قمرين ، ولكن في النهاية استسلمت ، فانقض عليها الذئب البشري ، وسلبها أعز ما تملك ، وفتك بعفتها ، وقضى على الأخضر واليابس منها ، استسلمت له لعدم استطاعتها الخلاص منه ، وهي المنهكة التي أنهكها الفقر والجوع ، فلم يبق لها من قوتها شيئًا ، فسقطت في لحظة ضعف ، استغلها الجاني ، وخاصة عندما علم بظروفها من أهل القرية ، وساعدته هي أيضًا ، وتعترف بذلك (فليلعنني الله في كل كتاب أنزل لأنني لم أرفض ، وتضرب رأسها في الحائط ، وتقول كنت عارفه أنه حرام وعيب ، لم تقاوميه كما يجب ، لم تصرخي وتلك الفضيحة) [٢].

لكن الجاني انقض على فريسته في لحظه ضعف ، واستسلمت له ، أليست إنسانة ، ولكل إنسان لحظات ضعف وكبوة ، إنها لم تكن تحيا حياةَ طبيعيةً كما تحيا النساء ، وتحملت الكثير من المآسي حيث مرض زوجها بمرض لا شفاء منه

(١) رواية الحرام ص١٨

(٢) الرواية ص١٨٥-١٨٦

وأطفالها يموتون جوعًا ، أما آن لهذا الجسد أن يقوى ، ولهذا العقل أن يستكين ، لقد جردها الفقر من كل شئ .

ولقد قاومت عزيزة هذا الرجل ، ولكن الجاني لديه القوة في الجسم والمال ، فهو من الطبقة الأرستقراطية ، وهي تمثل الفقراء ، فاغتال الغني شرف الفقير مستغلًا ضعفه ، واعتدت الطبقة المستغلة على الطبقة المسحوقة حتى إن الجاني بعيد عن العقاب على فعلته ، والذي دفع الثمن هي الضحية الفقيرة ، وكأن العقاب يكون فقط للفقراء وأفعالهم ؛ إذ مصيرهم النسيان ، وذنبهم الوحيد أنهم يتوحدون مع الفقر ، حتى لا يستطيعوا أن يحلموا ؛ لأن الحلم من المحرمات بالنسبة لهم ، وكأن الحلم حكر على الأغنياء ، وحتى الصراخ تحرم منه الطبقة الفقيرة ، فيكون هذا الصراخ ما هو إلا صدى صوت .

وهكذا تجسد الفقر والجهل والمرض في عزيزة ، وهو الثالوث المدمر الذي دفع بها إلى الهاوية حيث سقطت في مستنقع الرذيلة ، وأصبحت ضحية من ضحايا الفقر المدقع والعوز المفجع

وكانت النتيجة أن عزيزة حملت سفاحًا وتحرك الجنين في أحشائها فراحت تخفي بطنها عن الناس بربطه ، وجاءها المخاض ، وهي تعمل مع عمال التراحيل (فحملت عزيزة سفاحًا ثم ما لبث أن تحرك الجنين في أحشائها ، فراحت تخفيه عن أعين الناس بقدر ما تستطيع لعلمهم أن زوجها لم تعد به قدرة على الإخصاب منذ أمد طويل ، وجاءها المخاض بعد سبعة أشهر ، وهي تشترك في ترحيلة الدودة ، وعلى حافة الخليج وضعت وليدها بين الآهات المكتومة والتشنجات الداخلية ، ولم تطق أن يطلق الوليد صرخات الحياة ، فيفضح ما جاهدت طويلًا في التستر عليه

وكتمانه ، فأطبقت يدها على فمه حتى مات ، على حين كانت أحشاؤها تبكي ، وقلبها يتمزق) [1]

هذا الوصف يجسد لنا الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الفقراء حيث يمزق الفقر أحشاءهم ، ويفري كبدهم وقلوبهم ، ويتوجسون خيفة من الأغنياء ، فيخشون بطشهم ، ويأتمرون بأوامرهم ، ولا يملكون شيئًا إلا الانصياع ورفع راية الاستسلام .

وهذا الوصف السردي يجسد لنا الحالة النفسية السيئة التي تعانيها عزيزة وتشعر بها حين جاءها المخاض ، ولحظة قتل وليدها ، فهي لم تكن بحالة طبيعية ولم تكن تقصد قتله ، فقد بدا تفكيرها معطلًا ، وذلك حين وضعت الطفل ، وبدأ يصرخ ، ويهددها بالفضيحة الكبرى فعندئذ شل تفكيرها ، فجذبت الرضيع إليها ، ووضعت يدها على فمه خوفًا من الفضيحة ، فقتلته دون أن تدري .

إن هذه الرواية إدانة للنظام الاجتماعي ، حيث لا توجد ضمانات اجتماعية ولا حقوق للفلاح ، فلو كان له حق العلاج ما رقد عبد الله على الفراش الخشن منتفخ البطن ، وما آلت حالة زوجته إلى السقوط في الرذيلة ، فما سقطت فيه عزيزة هو نتيجة للقحط الاجتماعي الذي عاشت فيه ، لقد انساقت إلى الحرام تحت ظروفها قاسية ، فعزيزة ضحية لعملية اغتصاب .

وما اقترفته عزيزة من خطيئة إنما هو نتيجة مباشره للفقر الذي عاشت فيه أسرتها ، فعزيزة لا تعتبر مخطئ ؛ لأن طلب زوجها للبطاطا والذهاب إلى أرض قمري وإحضار البطاطا هو الذي جرها إلى الذهاب إلى أرض الرذيلة واغتصاب محمد بن قمرين إياها ، وما ذهبت إلى هذا الحقل إلا حبًا وشفقةً على زوجها .

(١) الرواية ص٢١٢

ولكنها في الحقيقة أرضت زوجها وأغضبت الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فالحرام ممنوع من قبل الله ورسوله ، فعزيزة تعرضت لعلاقة غير مشروعة ، والإسلام يعد عزيزة زانية وطفلها لقيطًا ، فعزيزة في نظر الشريعة الإسلامية والمجتمع اقترفت ذنبًا محرمًا في الإسلام .

ولكن الحقيقة المرة أن الثالوث المدمر (الفقر –الجهل –المرض) هو الذي دفع عزيزة للسقوط في مستنقع الرذيلة .

بل إن أحد النقاد يقول (إن عزيزة رمز للقهر الذي يستحوذ على الضعفاء ، فيدفع بهم إلى مستنقع الخطيئة صاغرين ، وإلى دنيا السقوط مكرهين ، وهذا أمر يقطع بأن الروائيين الواقعيين يصدرون عن رؤية أكثر إدراكًا للواقع وأشد وعيًا بالعوامل المؤثرة فيه ؛ لذلك نجد الكاتب يحرص كل الحرص على تجسيد الفقر الذي يعيشه أهل المكان (الغرابوة) والخواء الفكري الذي يسيطر عليهم)[1].

وهكذا نرى يوسف إدريس يوجه أصبع الاتهام والإدانة إلى النظام الاجتماعي لا إلى عزيزة ، فهي ضحية هذا المجتمع ، وكأن الكاتب يدق أجراس الخطر أمام القائمين على الأمر تجاه فقراء المجتمع المتوحدين مع العذاب واليأس ، واحتقار الأغنياء لهم واستسلام الفقراء .

فمأساة عزيزة بطلها المال حيث يبين الكاتب لنا تأثير قوة المال على الشخصية الروائية ، فمن يملك المال يملك كل شئ ، أما الفقراء فمصيرهم النسيان .

ويترجم لنا الكاتب أن السبب في سقوط عزيزة في بئر الرذيلة هو المال فلو كان لديها مال ما ذهبت إلى الحقل لحضار البطاطا ، بل كانت تشتريها بمالها ، ولو كان معها المال لعالجت زوجها وما استطاع محمد ابن قمرين أن يعتدي عليها ، ولكن قدرها أنها امرأة فقيرة معدمة ، بينها وبين الفقر عروة وثقى ، لانفصام لها .

(١) اتجاهات الرواية المصرية لشفيع السيد ص ٤٨.

ومن هذا المنطلق نجد أن المال قد أسهم بقدر كبير في التشكيل النفسي لعزيزة فإن الفقر جذبها إلى تيار الرذيلة ؛ إذ المال هو كل شئ في الوجود ، فمن يملكه يملك كل شئ شيئًا ، ومن لم يملكه لا يساوي شيئًا .

يضع الكاتب المادة في محراب التقديس ، ويجعلها ديدن الإنسان وشغله الشاغل؛ لأن المال هو سمة العصر الذي نعيش فيه .

وفي نهاية الرواية يحدد الكاتب مصير عزيزة ، وهو الموت لأن الموت هو أعظم عقاب لمن يعانق الرذيلة ، ويخاصم الفضيلة إيمانًا منه بأن طاعة الله هي خير طريق ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وبالتالي نرى أن العامل الاقتصادي لعب دورًا مميزًا في تغيير سلوك شخصية عزيزة .

٢- الغرابوة

هم عمال التراحيل الفقراء الغرباء عن العزبة الذين يعانون من شظف العيش وجفاف ينابيع الخير ، وهم الذين يبيتون بين مخلب الفقر يفترسهم ويقضى على آمالهم ، فإن العمل أصبح في نظرهم العصا السحرية التي تخلصهم من براثن الفقر والفاقة ، فيأتون من بلادهم للعمل في الموسم الزراعي بمنطقة العمل في التفتيش من أجل الحصول على بضعة قروش ؛ لتطعم جياعهم ، وتسد أفواه أطفالهم.

واسم الغراب أطلقه عليهم أهل العزبة ، واسمهم الحقيقي عمال التراحيل ؛ لأنهم يرحلون من مكان لآخر بغية العمل .

اهتم يوسف إدريس بتلك الفئة المطحونة اجتماعيًا اهتمامًا كبيرًا ؛ حيث إن الفقر والجوع والفاقة هو الذي دفعهم إلى اللجوء للعمل في التفتيش البعيد ، وترك البيوت والقرى سعيًا وراء يومية لا تتعدى بضعة قروش .

حتى إن أهل التفتيش يعاملونهم معاملة سيئة خاصة فكري أفندي ناظر التفتيش الزراعي يحتقرهم ، ويعاملهم معاملة فظة سيئة مستغلًا سلطته ، بل إنه يتحرش بنساء الغراب ، وهن صابرات من أجل لقمة العيش .

(و بمضي الأيام أصبحت نوازع غريبة تتحرك فيه كلما رأى بنتا أو امرأة من بنات النسوة ، الترحيلية ، بل وجد نفسه ذات مرة يمرح مع واحدة منهن ، ومرة ادعى لنفسه وللناس إنه يرغد بنتًا في صدرها ليزجرها ، وارتطمت يده طبعًا بثديها ، وروع قليلًا حين وجده بكرًا مكتنزًا كالكرة ، أما البنت فقد دهش حين رأى وجهها يبهت فجأة ، وكأنما سحبت منه كل دمائه .. يا ألطاف الله أممكن أن نساء الترحيلة تخجل وتغضب هي الأخرى كبقية خلق الله ؟ [1].

إن العامل الاقتصادي (المال) هو السبب في ترك الغراب – أي عمال التراحيل – بيوتهم وقراهم ، وتحمل احتقار أهل التفتيش لهم ؛ ذلك لفقرهم وحاجتهم الملحة للمال لسد رمق الجوع ، وفي ذلك إدانة للواقع الاجتماعي الذي يتحكم في حياة الناس .

(١) الرواية ص ١٩٨

٣- نبوية

هي نموذج بشري من أهل الغراب ، وهم عمال التراحيل ، تلك المرأة التي لاتملك قوت يومها حيث مات زوجها ، وترملت في ريعان شبابها ، فكتب عليها الحرمان من ملذات الدنيا ، وزلزلت الأرض تحت قدميها ، وهي تتعثر في أوحال الترمل والحرمان ، وموت زوجها ترك لها شرخًا في جدار حياتها ، فزحفت ظلال اليأس على نفسها ، واستبد بها الحزن استبداد السجان الحارس بالمسجون المتهم خلف الأسوار .

ولكنها تنفض عن جسدها اليأس وتضرب في الأرض بحثًا عن لقمة الخبز لتطعم أولادها ، وكل ذلك بسبب ما أصابهم من فقر مدقع وعوز مفجع ، وارتبطت بالفقر ارتباط العلة بالمعلول.

(زوجة لعربجي من عربجية التفتيش ، ومات وترك لها العربة والحصان وبنتًا وولدًا ، فباعت العربة والحصان ، وتاجرت بثمنها في (القوطة) ، وأفلست ، وعملت مقاولة أنفار وخبازة وخدامة في بيت المأمور السابق ، واشتغلت أخيرًا تاجرة بيض ، وربت الولد ، بل حتى أرسلت الولد ليتعلم في الكتاب (غير أن نبوية) لم تلبث أن خرست كل الألسن حين شاهدها المأمور ومن حوله ، وقد علقت (السبت) في يدها ، وراحت تطرق الأبواب ، وهي في أتم صحة ، وتسأل عن البيض[١]

وعلى الرغم من الفقر الذي يحيط بأسوار نبوية إلا أنها لم تترك عزيزة في محنتها ، بل رأفت بها ؛ لأنها أم وأنثى ، وتشعر ، وتحس بالأمومة ، والأنثى التي من جنسها ، فعملت واجبًا مع عزيزة (وقد ذبحت أرنبة صغيرة وطبختها وحملتها في

(١) الرواية ص٢١٤

حلتها إلى عزيزة كي تطعمها إياها . وفعلت هذا بين دهشة أهل العزبة واستكثارهم أن تفعل نبوية الفقيرة ذلك) [١].

والتقرير السردي والوصفي وضع النقاط فوق الحروف ؛ حيث وصف الحالة الاقتصادية لنبوية التي ترزح تحت نير الفقر والعوز ، فالعامل الاقتصادي هنا لعب دورًا كبيرًا حيث جعل نبوية تعمل خادمة ، ثم بائعة قوطة ، إذن المال هو السبب في جعلها تبيع العربة والحصان ، وهو الذي جعلها تنتقل من عمل إلى عمل حيث عملت خادمة في بيت المأمور ، ثم تاجرة بيض كل ذلك من أجل تربية الابن ، فالعامل الاقتصادي له قوة تأثير في سلوك الشخصية ، بل لعب دورًا كبيرًا في التشكيل النفسي لهذه الشخصية .

(١) ينظر الرواية ص٢١٣.

خاتمـــة

حقًا إن المال هو العصا السحرية التي تصنع المعجزات وهو زينة الحياة الدنيا إذا وظفه الإنسان فيما يرضي الله سبحانه وتعالى ، أما إذا استعان به على معصية الله فإنه يعد نقمة .

والمال يحصل عليه عن طريق الحلال أو عن طريق الحرام ، ويعد العمل أحد الوسائل في الحصول على المال ؛ لذلك فإن هناك عروة وثقى بين العمل والمال .

وتلعب الجريمة دورها في المال ، فكم من جرائم ترتكب من أجل المال ، مثل السرقة ، والاختلاس والنصب والاحتيال ، فالمال هو المحرك الأساسي لتلك الجرائم .

والمال هو السبب في تكدير صفو الإنسان وملأ نفسه بالحقد والحسد ؛ لذلك يلعب المال دوره في المحور النفسي للشخصية حيث يصبح في كثير من الأحيان الدفة التي تحرك الإنسان في بحر الحياة ، وقد يكون المال نقطة ضعف الإنسان .

ومن هذا المنطلق فإن يوسف إدريس في قصصه حفل بالاهتمام بالمال ، وجعله في إبداعه الوسيلة والسبب والشغل الشاغل لشخوصه وشوقهم وضالتهم المنشودة والمحرك الأساسي لهم على مسرح الحياة ، حيث أسهم المال في بناء الشخوص ، ومن أهم أعماله التي لعب فيها المال دوره المميز رواية العيب ورواية الحرام .

وتوصلت خلال الدراسة إلى أن يوسف إدريس اهتم بالطبقة الكادحة من الفقراء الذين عضهم الفقر بنابه ومزق نياط قلوبهم ، فدافع عنهم ، وهجم على النبلاء من الطبقة الإرستقراطية.

كما أنه نصب نفسه مصلحًا اجتماعيًا وناقدًا امتاز بنقده اللاذع لكثير من المشاكل الاجتماعية .

ويبين أيضًا أن الذي يملك المال يملك كل شئ ، ومن لا يملك المال هو والعدم واحد .

كما اهتم الكاتب وركز على العواقب السلبيية المترتبة على قوة تأثير المال في سلوكيات الشخصيات وتغيير مسار حياتها.

كما نجح الكاتب في استخدام تجربته الواسعة في الحياة في كتابة رواياته ، وذلك من خلال توظيفه لتقنيات روائية فريدة ، أسهمت في تطوير الرواية في الأدب المصري .

كما أكد يوسف إدريس على أهمية المال وقيمته العظيمة في الحياة مدللًا على البطل في الروايتين الذي استطاع من خلال المال أن يتحول في حياته كلها .

كما بين خلال هاتين الروايتين ما للمال من منزلة رفيعة ، وماله من تأثير على سلوك الشخصية حيث عمل على إفسادها .

والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذا البحث ، فالتوفيق منه وحده ، والتقصير والنقص مني ، وحسبي أنني بشر والله المستعان

المصادر و المراجـع

(١) روبرت كامبل – أعلام الأدب العربي المعاصر بدون .

(٢) شفيع السيد – اتجاهات الرواية المصرية ط دار المعارف .

(٣) طلعت صبيح السيد – القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية بين الرومانسية والواقعية – مطبوعات نادي الطائف الأدبي.

(٤) محمد زغلول سلام – دراسات في القصة العربية الحديثة – ط الكاتب المسرحي للطبع والنشر ١٩٧٣.

(٥) محمود دياب محمود دراسات في الفن القصصي بدون .

(٦) محمود دياب محمود نظره نقدية في فن الرواية العصرية ط ٢٠٠٧.

(٧) محمود دياب محمود محاضرات في القصة القصيرة بدون .

(٨) يوسف إدريس رواية العيب القاهرة سلسلة الكتاب الذهبي دار الهلال ١٩٦٢م

(٩) يوسف إدريس رواية الحرام القاهرة سلسلة الكتاب الفضي دار الهلال ١٩٥٩م

(١٠) يوسف ميخائيل أسعد سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٦.